اللغة العربية

وكيف يجب ان ندرّسها [1]

اخواني الاساتذة : تذكرون انني في مؤتمر الاساتذة الذي عقد هنا في السنة الماضية جئت في عرض البحث عن « مشاكل التهذيب في مدارسنا » على المشكل اللغوي بكلام موجز مقتضب . ويسرّني الآن ان ارى الفرصة سانحة لان اتبسط فيه بعض التبسط اذ طلبت اليّ لجنة المؤتمر هذه السنة ان اقول كلمتي في « كيف يجب ان ندرّس اللغة العربية »

الموضوع يتناول ثلاث كلمات رئيسية : اللغة والتدريس ونحن ، او بعبارة اخرى ، المادة والطريقة والمعلّم . فلنبدأ اولاً بالكلام عن لغتنا كلغة جارية ولغات العصر الحاضر في ميدان التنافس ، ثم عن تدريسنا من الوجهة العلمية الفنية ، واخيراً عن المعلم وهل فينا نحن اساتذة المدارس اللياقة والكفاءة اللازمتان لهذا الفنّ

***

اللغة العربية . اللغة واسطة التفاهم . هي وسيلة لنقل الفكر من دماغ الى دماغ . هي سيّارة نحن نحمل لها بضاعتنا من مكان الى آخر . وكل ما يهمنا من امر تلك السيارة ان توصل البضاعة سالمة غير مشوهة ، وان لا نحمل في سبيل ايصالها نفقات كبيرة ، وان لا ننفق وقتاً طويلاً

فاللغة العربية سيارة متقنة الصنع جميلة الصورة ولكنها مركبة كل التركيب لاقبل لها بالبساطة المرغوب فيها اليوم . فاذا ما وقفت اثناء السير ، وكثيراً ما تفعل ، (كما يعلم جيداً كلّ منا متى شرع يكتب او يخطب) حار السائق في كشف موطن الخلل وايجاد القطعة المناسبة للحل المناسب واعيته الحيلة في وضع الشيء موضعهُ ذلك لكثرة الاشياء في صندوقه وتعدد انواعها واختلاطها بعضها ببعض ، فهذا كبير وذاك صغير وذلك قبيح وآخر علاهُ الصدأ وآخر لم يجم عودهُ بعد وآخر لا يناسب المقام الى آخر ما هنالك من

(١) خطبة للاستاذ حبيب حتي تلاها في « مؤتمر المعلمين » بلبنان في الصيف الماضي وقد عالج حضرته هذا البحث عمليا لانه مدير المدرسة التي يتلقى فيها المرسلون الاميركيون اللغة العربية قبل استلامهم مهام مناصبهم

المتضاربات المتناقضات . وكثيرٌ من الناس مَن قضى العمر كلهُ ولم يحسن السير في الطريق واكثر منهم من عائلهُ وعورتها فعافها . نعم ايها الاخوان ان لغتنا الجميلة الشريفة مثقلة باعباء القرون الغابرة وقد حان لابنائها اليوم ان يعملوا على نزع هذه الاعباء عنها فيرسلوها حرة طليقة تُثنُّ غارتها بين لغات العصر الحاضر في ميدان تنازع البقاء

سألني احدكم قائلاً « اتريد ان تستبدل لغتنا بلغة جديدة ؟ » قلت بل اريدها قديمة تظهر بمظهر جديد . اريدها لغة حساسة قابلة للتطور والتكيف فتلبس لحالتنا الحاضرة لبوسها . اريدها لغة اليوم بنت لغة الامس . اريدها بناية الزمن الحاضر قائمة على انقاض العصور الخوالي . اريدها شجرة اصولها جاهلية وفروعها اموية عباسية اندلسية واثمارها جديدة لذيذة يتهافت عليها اليوم ادباء الشام ومصر والعراق واميركا

وقالت لي احدى السيدات الحاضرات « انني انتظر بذاهب الصبر التغيير المنويَّ لابدأ العمل بهِ ». قلت ان في عالم الطبيعة عاملين قويين لا يحدث انقلاب ذو شأن الاَّ باحدهما : الاول فجائي سريع العمل والثاني مستمرٌ بطيءٌ . لقد اوجد بركان يزوف في برهة قصيرة بحممهِ المنتشرة سهلاً خصيباً لفلاحي ايطاليا ولكنهُ اوجدهُ على قلب مدينتي پومپاي وهيركيولانيوم ، اما النيل فانهُ على تراخي الايام قد بنى لمصر سهل الدلتا الوافر الخصب دون ان يهدم بيتاً او ان يزهق نفساً . انا اوثر في عالم الاجتماع العامل الثاني فانهُ وان يكن بطيئاً فهو اسلم وارسخ تأثيراً . اني لا انتظر تغييراً فجائياً في حياة لغتنا العربية ، وجلُّ ما اتوخاهُ الآن هو ان نتشرب نحن اساتذة المدارس روح التساهل والتجدد والميل للانفلات من التقليد المقيِّد وان نكوِّن — ويساعدنا على ذلك مركزنا الاجتماعي — نواة لرأي عام في البلاد يسرُّنا ان نرى تحقيقهُ ولو بعد حين

اني ادعوكم اذاً قبل كل شيء لاتباع سياسة التساهل، سياسة اللين التي بها تستطيع اللغة العربية ان تنسجم وتتلوى مع التعاريج التي في جسم هيئتنا الاجتماعية الكثيرة فيكون لهُ منها ثوبٌ لا هو بالضائق اللاصق ولا بالمتهدِّل الفضفاض

التساهل الذي اعنيهِ لهُ منصرفات ثلاثة : التشذيب والادخال والتقريب بين الفصحى والمحكية

التشذيب . اللغة الحية هي اللغة التي تُنشئ مفرداتها على قاعدة الحياة كما في افراد الانسان والحيوان والنبات . هي التي تولدُ مفرداتها وتعيش ثم تهرم وتمرض وتموت . هي اللغة التي تتوالدُ مفرداتها وتتزاحم على البقاء فتندثر منها دول وتقوم دول . اما اللغة التي

مفرداتها جامدة ابداً خالدة باقية على مرّ الايام بينما مظاهرُ الاجتماع تمرُّ من امامها سراعاً تباعاً فهي اللغة الصلبة الباردة التي لا مظهر للحياة فيها

في اللغة العربية مترادفات جمة يستحيل على الطالب استيعابها كلها . ليكن مسؤولاً عن ثلاثة من اسماء السيف مثلاً ولتترك العشرات الباقيات يسيرُ بها الاهمال الى مثواها الاخير والافضل ان تكون تلك الاسماء الثلاثة اعرف الجميع

وفي اللغة العربية استعمالات اكل الدهرُ عليها وشرب ، زال عنها زمانها ومكانها وما زالت جارية على السنة بعض الخطباء واقلام بعض الكتبة كأنها بنت اليوم. « لا يملك شروى نقير » مثلاً عبارة يجب ان يحلّ محلّها اليوم «لا يملك غرشاً واحداً او ملياً واحداً او سنتاً واحداً او لا يملك من حطام الدنيا شيئاً » او ما يضارعها من العبارات المتعارفة المفهومة كل الفهم عند اهل هذا الزمان

وفي اللغة العربية قواعد صرف ونحو كثرت وتشعبت وتعقدت بكثرة التراكيب واللهجات لاقوام شتى في عصور متفرقة فالكلام في اللغة اولا ثم القواعد التي تنشأ عنهُ . ما ضرّ اللغة لو قلنا مثلاً مدارسٌ مدارساً مدارس كما تقول رجالٌ رجالاً رجال ؟ بل ماضرّها لو قلنا مدارسٌ مدارسٌ مدارسٌ مدارسٌ (بالتسكين في الحالات الثلاث) ؟ لماذا لا ؟ لماذا لا تقول سبع رجال وسبعة نساء ؟ اني لا اقصدُ ان اورد في هذا المقام كل ما اراهُ عبئاً على طالب اللغة في سبيل تحصيلها بل انما جئتُ ببعض نماذج تظهرُ الفكرة التي ارمي اليها

ربّ قائل يقول ان ما تراهُ انت عبئاً على اللغة هو من الجملات والمكلات المظهرات غناء اللغة وثروتها الوافرة العاملات على تنقهة العقل وتروبضهِ في معارج الفوّ والترقي . نعم ولكنّ الحياة قصيرة والجيوب فارغة . انظروا الى بيان الدروس في مدارسنا تروا عدد الفروع التي يجب على الطالب اكمالها في مدة معينة لما كيما يحسن لهُ بواسطتها تحصيل رزقهِ في عالم العمل . ذلك العالمُ الذي لا يبرزُ فيهِ الاّ من تفوّق سلاحهُ عدّاً ونوعاً . اما الرجل الذي يساعدهُ مالهُ وميلهُ لان يقضي معظم حياتهِ او كلها بين دفتي معجم اللغة فذاك هو العالمُ العلامة الذي لا يتناولهُ بحثنا — نحن معذبي الشرّ الجديد — بشيء الادخال . ولم يقل جماعة المحافظين بعدم التشذيب في اللغة فحسب بل انما اقاموا حرباً عواناً على كل من جاء بكلمة لاتمتُّ بنسبها الى آل يعرب . يكفي تجريماً للكلمة ان

يقال عنها انها لم ترد في قاموس اللغة. اولئك هم حماة اللغة يريدون ان يقيموا حولها سوراً منيعاً كسور الصين فتلقى بانفرادها وانزوائها وعدم احتكاكها بغيرها في عالم اللغات ما لثبت الامة الصينية بين الامم

من الالفاظ التي اخذها الانكليز في الحرب العالمية عن الجنود الهنود و يحبذون استعمالها اليوم كلمة Pukka بمعنى كامل وكلمة chit بمعنى تذكرة او بطاقة وهم يستعملون ايضاً مئات الالفاظ عن العربية والافرنسية واللاتينية وغيرها من اللغات فهل لوحظ ان الانكليزية سائرة الى الضعف والاضمحلال بادخالها ضمن حوضها تلك الالفاظ الغريبة عنها ام ان هذه تعتبر بمثابة الدم الجديد المقوي للجسم ؟

يقول الاميركيون ان اميركا في المرجل الذي يمزج كل شعوب الارض و يجعل منهم امة اميركية موحدة في امالها واظوارها ونزعاتها وعلى هذا المنوال يجب ان تكون اللغة المرجل الذي يمزج و يغير الى شكلها وهندامها كل الالفاظ الغريبة الداخلة عليها: امير البحر تصير Admiral وارز تصير rice وقيثاره Guitar وصحراء Sahara والوادي الكبير Guadilquivir الخ . اما ان يظهر علينا تيار الالفاظ الاجنبية حتى لا يعود في طوق اللغة هضمها وتحويلها الى عنصر مقوّ فنحن في مأمن منهُ الآن والحمد لله

اشتريت مؤخراً لابنتي وهي في الرابعة من عمرها لعبة موسيقية فنخت فيها حتى اتعبتني بصوتها فقلت كفى يا ابنتي الآن . سكتت هنيهة ثم جاءتني بعدها مستسمحة قائلة « بابا بتريد أوسّق لك شوي » ؟ مَوْسَق يُوَسْوِقُ مَوسقةً اي عزف على الموسيقى فعل يصح ان يكون في مصاف افعال اللغة ولو كان من بتكرات طفلة صغيرة . كذلك فعل بَلَف يَبْلِفُ بَلْفاً من bluff عن الانكليزية وفعل تيّل من تايفون واشباهها. في عرف الحق ان كل كلمة اجنبية ليس عندنا في العربية ما يقوم مقامها تماماً ان في المعنى وان في اللفظ يجب ان نفسح لها مجالاً في كلامنا غير جاهلين ان العبرة في صحة التركيب وسهولة فهمه وليس في نسب المفردات

يستعمل الانكليز الالفاظ الغريبة عن لغتهم اما لانها تؤدي المعنى الذي يقصدون او لسهولة في النطق بها او لرنة جميلة في لفظها او لقصر في لفظها وكبر في معناها او لغرض آخر من اغراض الكلام . فغايتهم العلم العملي وواسطتهم اليه السهل

ليس قوة الدولة وتفوقها السياسي التجاري العامل الوحيد الذي يفتح للغة طريقها الى اقصى منزويات الارض بل ان سهولتها وليونتها وانطباقها على حاجات العصر ومقتضيات

المكان وعقلية الجماعة عاملٌ قويٌ آخر . قال لي احد المحامين الناهضين في بيروت وكان في مقدمة الحاملين على فكرة الادغام القضائي في محاكمنا « الكلام بسرّك يا صاح ان اللغة الافرنسية اسهل واصلح للمعاملات القضائية التجارية »

وقد اخذ المجددون من كتبتنا ولاسيما في مصر واميركا يستعملون نظام التنقيط Punctuation اي النقط والعلامات والاشارات لفصل الكلام الى اجزائهِ وتسهيل تفهمهِ باسرع ما امكن من الوقت فلا يقف بعد في وجهِ القارئ كالبناء المرصوص الذي لا يعرف لهُ اول ولا آخر . لقد فعلوا ذلك ولم نسمع والحمد لله حول هذه المسألة ضجة للمحافظين كأني بهم يحسبونها من صغائر الامور التي لا يؤبهُ لها

***

التقريب بين الفصحى والمحكية — اني احاول دائماً ان اقنع تلامذتي واصحابي الافرنج الذين يدرسون عليَّ اللغة العربية ان لنا نحن معاشر الناطقين بالضاد لغة واحدة وليس لغتان كما يقولون وما اللغة المحكية او العامية سوى الفصحى مسختها السنة الناس في العصور المتوالية والاقطار المترامية . لسان حالهم « آمنا وصدقنا ولكن لماذا تكتبون لغة وتتكلمون اخرى »؟

قالت سيدة انكليزية ترأسُ احدى مدارس البنات الكبرى في بيروت انها كثيراً ما طلبت الى اصدقائها من السوريين الكلام في مدرستها فكان اكثرهم يؤثر التكلم بالانكليزية خوفاً من العربية الصحيحة واستنكافاً من العربية الدارجة !

كم تظنون عدد المتعلمين والمتعلمات الذين يحملون شهادات الجامعات والمدارس العليا عندنا ويقدرون ان يكتبوا العربية كتابة صحيحة ؟ لا اخالهُ يتجاوز العشرة بالمئة ! اما من حيث الخطابة فاظن انهُ يندر في الاقطار السورية من يرتجل اللغة صحيحة مضبوطة . ولا اعرف من يقدر على ذلك سوى رجل فرد سمعتهُ مراراً في بيروت ثم ما لبث ان نبا بهِ هذا الوطن التاعس

قولوا لي اذاً ، رعاكم الله ، لمن وضعت هذه اللغة ؟ أهي لسان لنا ام هي كما نسمع في بعض الاحايين انها «لسان الملائكة» ؟ بل قولوا لي ما الغاية من تركها على شكلها الحاضر في هذا العصر؟ قال لي احد ثقاة الفرنجة في بلادنا «انكم تحملون لغتكم في اناء من زجاج» ولو كان شاعراً عربياً لانشد وقال :

حبتك يا منى قلبي لاني اخاف عليك من مرّ النسيم

ابناء العربية يؤثرون التكلم بلغات الغرب ليس لان البيوت والمدارس عندنا تعنى بتلقينهم تلك اللغات تلقيناً لا يتناولهُ لسانهم العربي ، لا ولكن لان التكلم الصحيح باللغة العربية على ما هي عليهِ الآن ليس من الهنات الهينات

الرأي : ان تنزل العربية الفصحى عن عرشها قليلاً وان تصعد المحكية عن مستواها فتلتقيان على مخرج مشترك واحد هو لغة توفق بين الاثنتين . لغة لا يمجها ذوق الاديب البارع ولا تفوت مراميها العامي الساذج . لغة كاللغة التي يستعملها المتأدبون في حلقاتهم وكاللغة التي يعظ بها اكثر قسس البروتستانت من على منابرهم وكاللغة التي سبق فتكلم بها اكثر خطباء هذا المؤتمر . اكرر لغة واحدة توفق بين المحكية والفصحى نؤبن بها موتانا من على المنابر ونشتري بها فاكهتنا من السوق

***

التدريس — وهل اسلوبهُ في مدارسنا علميٌّ نبيٌّ ؟ انهُ بعيد عنهُ فان فن تدريس اللغات حتى في اكبر جامعات الغرب واخصبها لم يزل في طور التجربة والاختبار . نظام تدريسنا اللغة العربية ليس هو بالعلمي النبي ولا هو بالموحّد الشامل ، فاننا في مدارسنا يغني كلٌّ على ليلاهُ . على انهُ يجدر بنا كاساتذة في هذا العصر ان نحلل درس اللغة الى فروعهِ الرئيسية وان نتفاهم في كيف يجب ان نطرق كل فرع على حدة وان نحفظ في ذهننا صورة واضحة للفروع منفردة كاجزاء ومجموعة كاحد تلك الفروع — بحسب العلم الحديث — سبعة :

١ . الفهم اللاتحليلي (Assimilation) . طريقة السماع . مثال ذلك ان يقف الاستاذ متكلماً في صفهِ (صغاراً او اجانب) برهة من الوقت يجب ان لا تتجاوز عشرين دقيقة ، كلاماً فصيحاً توضحهُ النبرات والاشارات دون ان يسمح لاحد من التلامذة ان يردد كلمة او ان يسأل عن معناها في تلك البرهة . تلك هي الطريقة التي يتعلم بواسطتها الولد في البيت والاجنبي في السوق ، يسمع اصوات الكلام المتكرر فتنفعل فعلها في جهازهِ العصبي ولا تلبث ان تصير جزءاً متمماً لقوة تحصيل اللغة فيهِ . وعلى المدرسة ان تكون البيت للولد والسوق للاجنبي وذلك بايجادها لهما محيطاً تتوافر فيهِ شروط النجاح

ب . اللفظ . ليس فينا من يعرف الفرع الذي يدعونهُ Phonetics اي تعليم اللفظ فيسيولوجيًّا . وليس في الشرق الادنى على ما اعهد مدرسة تلقنهُ سوى مدرسة تعليم العربية للاجانب في القاهرة وذلك في كتاب اللغة المستشرق والمؤلف Canon Gairdner بقي ان نعلم اللفظ بواسطة التقليد والاملاء والقراءة

ج . الحفظ غيبًا . حفظ الاصوات والكلمات والجمل يحصل بالتكرار المتواصل وبالسماع وقد تساعد عليهِ الاسئلة والاشارات

د . المعنى . يجب تحصيلهُ بواسطة العلاقة المادية او المرادف او الحدّ او الاستعمال او الترجمة . فاذا فات التلميذ معنى كلمة مثلاً يجب ان تهديهُ اليهِ بالدلالة الى مادتها اذا امكن والاَّ فلتعطهِ مرادفًا لها او حدًّا ثم لتلجأ الى استعمال الكلمة في جملة واخيراً الترجمة الى لغة اخرى اذا كان الطالب ممن لهُ المام بها

ه . التركيب . طرق الوصول اليهِ هي القراءة والتحليل والتركيب والترجمة . يعمد الى تحليل عبارة صحيحة او مقالة تحليلاً كاملاً ثم يطلب من التلميذ ان ينسج من عنديانهِ على منوالها واخيراً يطلب منهُ التعريب او الترجمة من لغة اخرى يعرفها

و . الاشتقاق طريقتهُ التصريف بمعناهُ الواسع . كأن يذكر الاستاذ جملة (وليس لفظة) ويطلب تصريفها من حيث الزمان والشخص والجنس والعدد والحالة . ثم يطلب تغيير هذه كلها او بعضها والتصريف بعد التغيير

ز . الخط . بالتقليد والاملاء . القراءة ولاسيما قراءة الخطوط

***

الاستاذ — الكفء الراقي شروطهُ وصفاتهُ الضرورية كثيرة صعبة ربما كانت صفات الكاهن الصالح ايسر منها واهمها :

ا . الشخصية . يجب ان يكون لكل معلم شخصية محترمة محبوبة عند تلامذتهِ ، وهي وان كانت من الصفات الطبيعية في المرء فان عامل الاكتساب لهُ عملهُ فيها

ب . فهم الفرع . على الاستاذ الراقي ان يفهم فرعهُ حق الفهم وان يكون مالكاً ناصية الموضوع واثقًا من نفسهِ فيهِ

ج . انتخاب المادة . ليس في فصول الكتب وابوابها الحدّ الفاصل لقوة الفكر ، وليس من الحكمة ان يسير الطالب في درسهِ بين حائطين حصينين . على الاستاذ الراقي ان

يُنتخب مادة الموضوع سنة فسنة ثم يوماً فيوماً . ولا يخفى ما يقتضيهِ هذا الامر من حسن الذوق و بعد النظر

د . الاستعداد اليومي ضروري حتى في اسهل الفروع وابسطها اذ بهِ يكون سيف طوق الاستاذ ان يرسم في مخيلتهِ برونغرامًا خاصًا بناسب الصف والفرع والوقت

ه . عدم الشرح المطول . قد آنستُ من الكثيرين من اساتذة اللغة العربية في مدارسنا ميلاً للظهور عن طريق الشرح المطول والكلام المسهب . ولن انسى يوم كنا احداثًا ندرس النحو على احد علمائهِ في كتاب ارجوزة اليازجي . فكان الاستاذ بحراً ، كما يقولون ، والكتاب بحراً آخر ونحن لم نكن نحسن السباحة بعد ، فلا تسل كم غريق في ملتقى البحرين

و . اشراك التلميذ في العمل . الاستاذ والتلميذ حليفان امامهما مشكل واحد يجب حلهُ او قل عمل مشترك يجب اتمامهُ . واذن على الاستاذ وهو الحليف الاكثر خبرة ان يقود الطالب في البحث وان يردَّهُ الى حظيرتهِ متى شرد عنها وان يساعدهُ على النهوض متى كبا وان يشجعهُ متى اصاب المرمى

ز . التغيير . العقل خاضع لسنة النشوء ، اليف التطور والتغيُّر و بذلك لهُ هذا الامر في دائرة عملهِ . بل انما هو يتغذى منهُ ويتقوى بهِ . فاذا عرفنا هذا الامر وادركنا خطورة المسؤولية الملقاة علينا وجب علينا ان نكون دائمًا يقظين ملؤنا الانتباه واللذة فلا نغير كل يوم طريقة التدريس فحسب ، بل نغير صوتنا واشاراتنا ، بل وجلوسنا وملابسنا اذا امكن ايضاً

***

هذه هي ملاحظاتي ايها الاخوان الاساتذة في هذا الموضوع المهم ، اوردتها على مسامعكم ورائدي في ذلك الاخلاص والرجاء . فلتتبين صحيحها ولتعمل بهِ في سبيل اللغة والوطن وعلى الله الاتكال

بيروت حبيب حتي

—٥:٥—